The Making of Biblical Womanhood

صناعة ما يُسمّى «الدور الكتابي للمرأة»

How the Subjugation of Women Became Gospel Truth

كيف صار إخضاع المرأة حقيقةً إنجيلية

المؤلّفة: بيث أليسون بار (Beth Allison Barr)، أستاذة التاريخ (تخصّص العصور الوسطى) في جامعة بايلور (Baylor University)

Beth Allison Barr · الترجمة الألمانية: Hans-Jörg Ronsdorf · أبريل/نيسان 2021 · رُوجعت في أكتوبر/تشرين الأول 2026

هذا الكتاب واحد من الردود على الكتاب الذي صدر في الولايات المتحدة سنة 1991: Recovering Biblical Manhood & Womanhood. ويتبنّى هذا الأخير فهمًا تراتبيًا صريحًا لأدوار الرجل والمرأة في الزواج والكنيسة والمجتمع. وهو متاح بالألمانية أيضًا منذ 2008 (انظر أدناه). ومؤلّفاه أو محرّراه هما واين غرودم (Wayne Grudem) (المعروف بكتابه في العقيدة النظامية «Biblische Dogmatik»، المتاح بالألمانية أيضًا) واللاهوتي المعروف جون بايبر (John Piper).

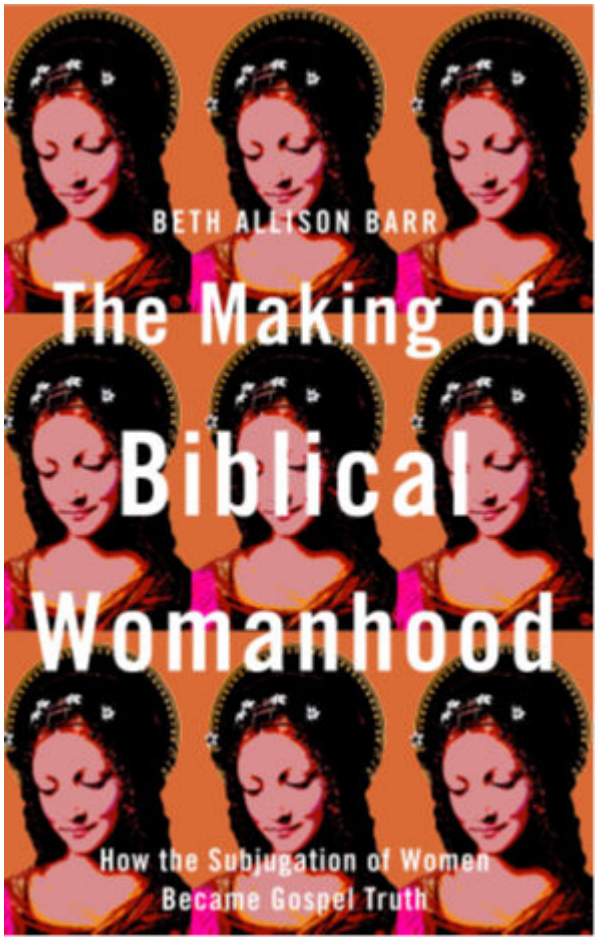

إنه ردّ على هذا الكتاب:

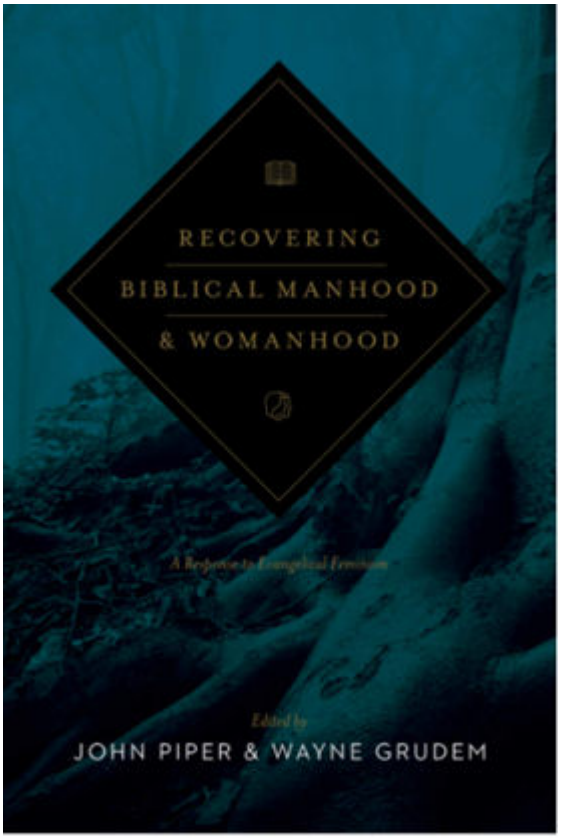

بالألمانية:

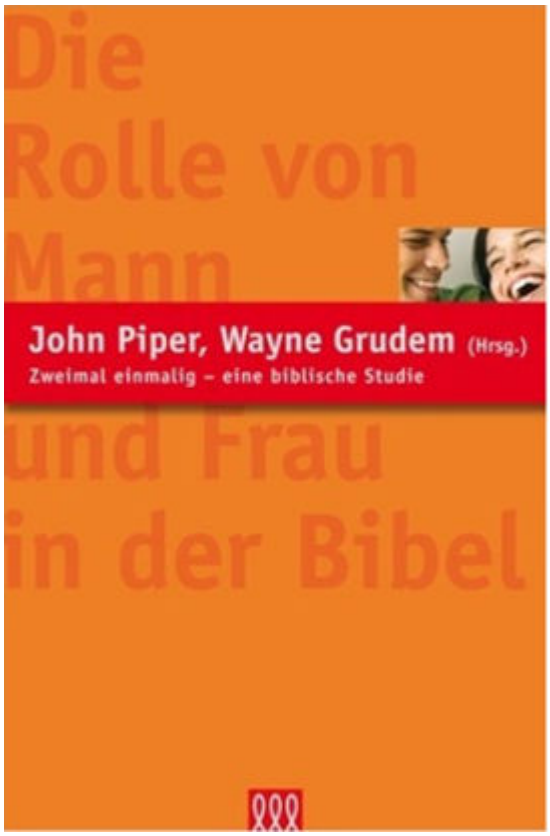

https://www.3lverlag.de/schnellbestellung/289-die-rolle-von-mann-und-frau-in-der-bibel.html

المحتويات

شكر وتقدير

مقدّمة

1. بدايات النظام الأبوي
2. ماذا لو لم يكن «الدور الكتابي للمرأة» مصدره بولس أصلًا؟
3. ذاكرتنا الانتقائية عن العصور الوسطى
4. الثمن الذي دفعته النساء الإنجيليات بسبب الإصلاح
5. محو النساء من الكتاب المقدّس الإنجليزي
6. تقديس الخضوع
7. رفع «الدور الكتابي للمرأة» إلى مرتبة حقّ الإنجيل
8. أما آن الأوان لإطلاق النساء؟

مقتطف من الفصل 2 – ترجمة (من دون الحواشي)

ماذا لو لم يكن «دورنا الكتابي للمرأة» مصدره بولس؟

«أنا أكره بولس!»

لا أستطيع أن أخبركم كم مرة سمعت هذا من طلابي، ومعظمهم شابّات موسومات، بل مجروحات حقًّا، بالطريقة التي استُعمل بها بولس ضدّهن، حين قيل لهن إن عليهن أن يصمتن (1 كورنثوس 14)، وأن يخضعن لأزواجهن (أفسس 5)، وألّا يعلّمن أو يمارسن سلطة على الرجال (1 تيموثاوس 2)، وأن يعملن في البيت (تيطس 2). لقد عُلّمن أن الله قد حدّد للنساء أن يتبعن قيادة الرجال (1 كورنثوس 11) وأن يركّزن على العائلة والبيت (كولوسي 3؛ 1 بطرس 3)، وأن كلّ انشغال غير العائلة ينبغي أن يكون للنساء في المرتبة الثانية، وإن وُجد، ففي الغالب بدافع الضرورة أو بعد أن يغادر أولادهن البيت.

قبل بضع سنوات جاءت طالبة إلى مكتبي، بحجّة مناقشة بحثها الفصلي، لكن سرعان ما اتّضح أن ما كانت تريد مناقشته حقًّا هو دعوتها. فسألتني: هل دعاك الله إلى أن تكوني أستاذة جامعية وأمًّا وزوجة قسّ في آن واحد؟ هل كان ذلك صعبًا؟ هل شعرتِ بتأنيب الضمير لأنكِ عملتِ خارج البيت؟ هل ساندك زوجك؟ وماذا ظنّ الناس في كنيستك؟ وحدّثتني عن إحباطها بوصفها مسيحية طموحة مهنيًا من بيئة محافظة، تحاول أن توفّق بين توقّعات الكنيسة والعائلة وبين أهدافها المهنية. فقد أغضبها حديث أجرته مؤخّرًا مع أبيها. إذ كانت قلقة بشأن تخصّصها الرئيسي، فطلبت نصيحته. فحاول أن يهدّئ مخاوفها بقوله إن تخصّصها ليس بهذه الأهمية، لأنها ستتزوّج على أيّ حال ولن تعمل. فأجابت مصدومة: «يا أبي، هل ترسلني حقًّا أربع سنوات إلى الجامعة لكي لا أستعمل شهادتي أبدًا؟»

وموقف الأب من النساء اللواتي يعملن خارج البيت ليس غير مألوف. فكما رأينا، توصّلت دراسة لمؤسّسة بارنا (Barna) سنة 2017 إلى أن الأمريكيين عمومًا يشعرون براحة متزايدة تجاه النساء في أدوار القيادة، ويُبدون تفهّمًا أكبر للعوائق الكبيرة التي تواجهها النساء في مكان العمل – أما المسيحيون الإنجيليون فمتخلّفون عن الركب. ولعلّ أكثر الفجوات إثارة للدهشة في الموقف الإنجيلي تتعلّق بالنساء في أدوار قيادية معيّنة. ففي سنة 2016 علّقتُ بأن موقف واين غرودم من النساء – أنهن يجب ألّا يمارسن سلطة على الرجال أبدًا – جعل من المستحيل عليه أن يؤيّد مرشّحة للرئاسة. وتوحي دراسة بارنا بأنني كنت محقّة في ذلك. فالقادة الإنجيليون البيض مثل غرودم، الذين وقفوا وراء ترشّح دونالد ترامب (Donald Trump) للرئاسة، ينتمون إلى الفئة الأقلّ ارتياحًا لرئيسة امرأة. فبالنسبة إلى بعض الناخبين الإنجيليين والجمهوريين على الأقل (27–35 بالمئة) لم تكن المشكلة مع هيلاري كلينتون (Hillary Clinton) أنها ديمقراطية فحسب، بل أيضًا أنها امرأة (فقد قال 27 بالمئة من الناخبين الإنجيليين و35 بالمئة من الناخبين الجمهوريين إنهم لا يرتاحون لرئيس امرأة). وبعد ثلاث سنوات لم أُفاجأ بأن ترشّح إليزابيث وارن (Elizabeth Warren) للرئاسة سقط تحت المقصلة نفسها القائمة على الجنس.

للأفكار عواقب. فهذه القناعات الإنجيلية – وسبب دفاعها عن ثبات خضوع المرأة – متجذّرة في الطريقة التي تفسّر بها بولس. فقد يبدأ «مجلس الرجولة والأنوثة الكتابيّتين» (Council on Biblical Manhood and Womanhood) عرضه للتكاملية[1] بالتكوين 2، لكن قراءته لرواية الخلق هذه مستمدّة من 1 كورنثوس 11 و1 تيموثاوس 2. فكلمات بولس تحدّد كلّ جانب من جوانب التعاليم التكاملية. والإنجيليون يقرأون النصوص البولسية كما لو أنها تحدّد فروقًا دائمة ومرسومة إلهيًا في الأدوار بين الجنسين. فالرجال يمارسون سلطة ليست للنساء.

الرجال يقودون، والنساء يتبعن. هذا ما يقوله لنا بولس.

فهل من عجب أن طلابي يكرهون بولس؟

ولكن ماذا لو كنّا قد أسأنا قراءة بولس؟ في السنوات الأولى من خدمتنا بين الشباب، أخذنا أنا وزوجي مجموعة من الشباب إلى مؤتمر تبشيري في عطلة نهاية الأسبوع. وكشف أحد المتكلّمين عن سلاحه التبشيري السرّي – السؤال: «ماذا لو كنت مخطئًا؟» لا أذكر الكثير من ذلك المؤتمر، لكن هذا السؤال علق في ذهني. وقد وجدته مفيدًا في عملي مؤرّخةً – ماذا لو كنت مخطئة في استنتاجاتي؟ هل أنا مستعدّة لإعادة النظر في الأدلّة؟ ووجدته مفيدًا في عملي معلّمةً، ولا سيّما حين يعرض عليّ طالب فكرة مختلفة. فالسؤال «ماذا لو كنت مخطئة؟» يساعدني على الإصغاء إلى الآخرين بطريقة أفضل. ويحفظني متواضعة. ويجعلني باحثة أفضل.

فهذا إذًا سؤالي للإنجيليين التكامليين: ماذا لو كنتم مخطئين؟ ماذا لو كان الإنجيليون قد فهموا بولس من خلال عدسة الثقافة الحديثة، لا كما أراد بولس أن يُفهم؟ تخشى الحركة الإنجيلية أن يكون الاعتراف بقيادة النساء خضوعًا للضغط الثقافي. ولكن ماذا لو كانت الكنيسة تخضع للضغط الثقافي حين ترفض قيادة النساء؟ ماذا لو كان تفسيرنا لبولس – وما ترتّب عليه من استبعاد النساء من مهام القيادة – ناتجًا، لا عن قراءة «بسيطة وطبيعية»، بل عن تكيّفنا مع المواقف وأنماط التفكير المحيطة بنا؟ ربما استعمل مسيحيون في الماضي بولس لاستبعاد النساء من القيادة، لكن هذا لا يعني أن خضوع النساء كتابي. بل يعني فقط أن المسيحيين اليوم يكرّرون الخطأ نفسه الذي ارتكبه المسيحيون في الماضي – إذ نوجّه تعاملنا مع النساء بحسب العالم المحيط بنا، لا بحسب العالم الذي يُرينا يسوع أنه ممكن.

فحين يقول طلابي إنهم «يكرهون بولس»، أجيبهم: ليس بولس هو من تكرهون؛ بل تكرهون الطريقة التي صارت بها رسائل بولس أساسًا لفهمٍ للأدوار الكتابية للجنسين يقمع النساء. وتأسف بيفرلي روبرتس غافنتا (Beverly Roberts Gaventa)، وهي من أبرز الباحثين في دراسات بولس، لأن الإنجيليين قضوا وقتًا طويلًا جدًا في «تمشيط سطور رسائل بولس بحثًا عن أقوال لاهوتية وتوجيهات أخلاقية يجب اتّباعها بصرامة»، حتى فاتنا الهدف الأكبر لبولس. فقد اختزلنا دعوته إلى الوحدة في حراسة الحدود من أجل التماثل؛ واستبدلنا «الطابع الجذري» لجسد المسيح بتراتبية جامدة قائمة على الجنس والسلطة. وبدلًا من «التفكير مع بولس»، كما تناشد غافنتا، حوّل الإنجيليون بولس إلى سلاح في حروبنا الثقافية الخاصة. ويوضّح عالم العهد الجديد بويكن ساندرز (Boykin Sanders) أنه قد آن الأوان لفهم بولس فهمًا صحيحًا في ما يتعلّق بالنساء. فبالخطّ العريض، تحت عنوان «ليس ذكر وأنثى»، يحاجّ قائلًا: «الدرس للكنيسة السوداء هنا هو أن التمييز على أساس الجنس في عمل الكنيسة غير مقبول». فبولس يُرينا أن التمييز بين الجنسين هو «عودة إلى طرق العالم»، ونحن مدعوّون إلى «العالم الجديد لإنجيل المسيح المصلوب».

والحقيقة – الواقع الإنجيلي – هي أننا انشغلنا كثيرًا بتكييف بولس على مقاسنا، حتى نسينا أن نتكيّف نحن مع ما يدعونا إليه بولس: أن نكون واحدًا في المسيح. وبدلًا من أن نختار الأفضل ونتمسّك بـ«العالم الجديد لإنجيل المسيح المصلوب»، اخترنا أن نستمرّ في فعل ما فعله البشر دائمًا: أن نبني برجنا الخاص من التراتبية والسلطة.

لأننا نستطيع أن نقرأ بولس قراءة مختلفة

كاتب عظتي المفضّلة عن الزواج كاهن من العصور الوسطى. لا يعرف كثيرون اسمه، مع أن دوروثي ل. سايرز (Dorothy L. Sayers) سرقت قلبي حين اقتبست منه في روايتها البوليسية الكلاسيكية «The Nine Tailors» (بالألمانية «Die neun Schneider»، أي «الخيّاطون التسعة»؛ وهي أيضًا من مفضّلاتي). كان اسمه جون ميرك (John Mirk)، وعاش في غرب إنجلترا في أواخر القرن الرابع عشر وأوائل القرن الخامس عشر. وقد صارت مجموعة عظاته، Festial، شائعة في إنجلترا – شائعة إلى حدّ أن الطبعة الأولى من العظات البروتستانتية الرسمية سنة 1547 كُتبت جزئيًا لمواجهة هذا التأثير. وتوجد أدلّة على أن عظات Festial ظلّت تُطبع حتى عشية الإصلاح، وعلى أن Festial ظلّ يُوعظ به، رغم عقيدته الكاثوليكية، طوال عهد الملكة إليزابيث الأولى.

اسمعوا كيف توصف العلاقة الزوجية بين الرجل والمرأة في عظة Festial هذه: «هكذا ينبغي للرجل بحسب وصية الله أن يتّخذ امرأة من السنّ نفسها، والمكانة نفسها، والمولد نفسه». ويتابع النص: «لذلك يترك الرجل أباه وأمه ويذهب إليها كما إلى جزء من نفسه، وهي تحبّه وهو يحبّها، بصدق أحدهما للآخر، ويكون الاثنان جسدًا واحدًا». فالعظة لا تشدّد على التراتبية، بل على أن الرجل والمرأة ينبغي أن يتحابّا «بصدق أحدهما للآخر» وأن يصيرا «جسدًا واحدًا». وحين يبارك الكاهن خاتم المرأة، يوضّح أنه «يمثّل الله الذي ليس له بداية ولا نهاية، ويضعه في إصبعها الذي فيه عِرق يمتدّ إلى قلبها، ليُظهر أنها ينبغي أن تحبّ الله فوق كلّ شيء ثم زوجها». فالخاتم يعلن أن ولاء المرأة هو لله أولًا ثم لزوجها. ومع أن العظة مليئة بالآيات الكتابية وتقتبس بغزارة من التكوين 1-3 ومن متى 22 ويوحنا 2، فإنها لا تقتبس من بولس. ولا تتضمّن أيّ إشارة إلى أفسس أو كولوسي أو تيطس أو حتى 1 بطرس – وهي الأسفار العهد-جديدية المعروفة بأنها تتضمّن دعوة النساء إلى الخضوع لأزواجهن. وهذه المقاطع العهد-جديدية المعروفة باسم «لوائح الواجبات المنزلية»[2] (أفسس 5: 21-6: 9؛ كولوسي 3: 18-4: 1؛ 1 بطرس 2: 18-3: 7؛ تيطس 2: 1-10) تهيمن على

النقاشات الحديثة حول أدوار الجنسين، وقد وضعت الأساس للتعديل الذي أُضيف سنة 1998 إلى «Baptist Faith and Message» (إعلان الإيمان المعمداني)، ومفاده أن الزوجات ينبغي أن «يخضعن بطيب خاطر» لسلطة أزواجهن. لكن عظة ميرك من العصور الوسطى «تولي خضوع المرأة قيمة ضئيلة جدًا بوصفه أساسًا لحياة زوجية صالحة»، كما تلاحظ المؤرّخة كريستين بيترز (Christine Peters). فميرك لا يعلن أن المرأة ينبغي أن تطيع زوجها. بل إن عظته تشدّد على أن حواء وقعت في المتاعب بالذات لأنها أحبّت زوجها أكثر مما ينبغي، ولذلك فإن خاتم الزواج ليس رمزًا لكون المرأة ملكًا لزوجها – بل هو تذكير للزوجات بأن يضعن الله في المقام الأول.

وقد اكتشفت في أبحاثي أن العظات في إنجلترا في أواخر العصور الوسطى نادرًا ما تناولت المقاطع البولسية التي يتمرّد عليها طلابي. وهذا فرق جوهري عن العظات في العالم الإنجيلي الحديث – وهو أمر مدهش إلى حدّ ما، إذا أخذنا في الاعتبار أن عالم العصور الوسطى كان مائلًا إلى النظام الأبوي مثل العالم القديم وعالمنا الحديث (والمزيد عن ذلك في الفصل التالي). وهو أيضًا فرق جوهري عمّا عُلّمناه عن كتابات بولس بشأن النساء – أنها استُعملت عبر التاريخ المسيحي كلّه خيطًا أحمر متّصلًا للحفاظ على خطّة الله بأن يقود الرجال وتتبع النساء.

وهذا ببساطة غير صحيح. خذوا الكاثوليكية مثلًا. يبدو أن الإنجيليين يظنّون: بما أن التقليد الكاثوليكي لا يرسم نساء، فلا بدّ أنه يستند أيضًا إلى بولس لدعم رئاسة الرجل في الزواج. وليس الأمر كذلك، أو على الأقل ليس كذلك باتّساق. يوضّح عالم الأديان دانيال سيري (Daniel Cere): «لم يكن في التقليد الكاثوليكي قطّ تقليد تعليم رسمي يؤيّد الخضوع [الزوجي]». ويصف مؤرّخ العصور الوسطى ألكوين بلاميرز (Alcuin Blamires) «مفارقات مُعذِّبة» (عملية وكتابية على حدّ سواء) لاحقت تعاليم الكاثوليكية في العصور الوسطى عن الجنس والسلطة وجسد المسيح. فمثلًا، لأن الأزواج كانوا يخطئون، كثيرًا ما تبيّن أنهم قادة سيّئون لزوجاتهم – وبذلك صار «الخطّ الأساسي» لسلطة الرجل ضبابيًا لدى وعّاظ العصور الوسطى. وكما حاجّ نصّ من أوائل القرن الخامس عشر، لا ينبغي للمرأة أن تتبع زوجها اتّباعًا أعمى، لأنها – كما تقول عظة ميرك عن الزواج – مدينة بالولاء أولًا ليسوع بوصفه «زوجها الأهمّ». فبالنسبة إلى نساء العصور الوسطى، كان يسوع بوصفه رأسًا يستطيع أن يتفوّق على سلطة الزوج؛ بل كانت النساء أحيانًا يتولّين القيادة.
ويناقش بطرس أبيلار (Peter Abelard)، وهو مدرسيّ شهير من القرن الثاني عشر، القصة الكتابية عن المرأة التي دهنت يسوع بالطيب (متى 26: 6-13؛ مرقس 14: 3-9؛ لوقا 7: 37-50). ويكتب أبيلار أنه حين «تتّصل المرأة، لا الرجل، برأس المسيح»، فإنها «تقيمه فعلًا ‹مسيحًا›». فبسماح يسوع لامرأة بأن تدهنه بالطيب، يُلغي السيادة الذكورية – إذ يسمح لامرأة بأن تفعل ما لم يكن يفعله حتى ذلك الحين إلا الرجال: مسح الملك. ويصف بلاميرز حجّة أبيلار بأنها «إزاحة مذهلة للعلاقة التقليدية بين الجنسين، التي تجعل الجسد أنثى والرأس ذكرًا». ومسح المرأة ليسوع هو عند أبيلار «تسمية»، كما يكتب بلاميرز. «إن هذه المرأة هي التي تمسح قدّوس القدّيسين مسيحًا». وكان يمكنني أن أقول أكثر بكثير، لكن هذه هي النقطة: رغم الهوس الإنجيلي برئاسة الرجل، كان المسيحيون في الماضي والحاضر أقلّ يقينًا. وموقف البابا يوحنا بولس الثاني في رسالته الرسولية سنة 1988 («Mulieris dignitatem») مثال جيّد على ذلك. فهو يوحي بأن استعمال كتابات بولس في أفسس 5 لتبرير سيادة الرجل وخضوع المرأة في الزواج يعادل استعمال هذه المقاطع لتبرير العبودية.

لأن بولس لم يكن يقصد قطّ التشديد على خضوع الزوجات

فلنتكلّم إذًا عن خضوع الزوجات، وهي فكرة يستنتجها الإنجيليون من لوائح الواجبات المنزلية في العهد الجديد. وكما رأينا، يشير السياق التاريخي إلى أن خضوع الزوجات لم يكن هدف كتابات بولس، ولا حتى في لوائح الواجبات المنزلية. فماذا لو لم يُدرج بولس لوائح الواجبات المنزلية ليفرض على المسيحيين كيف يتبعون التراتبية الجنسية في الإمبراطورية الرومانية، بل ليعلّمهم أن يعيشوا حياة مختلفة في بيئتهم الرومانية؟ وماذا لو أمكن أن تُقرأ لوائح الواجبات المنزلية، لا بوصفها «نصوص رعب» عهد-جديدية للنساء، بل بوصفها مقاومة للنظام الأبوي الروماني؟

إذا أُخذت على ظاهرها (بوصفها «تفسيرًا بسيطًا وحرفيًا»)، تبدو لوائح الواجبات المنزلية كأنها تقدّس البنية الأبوية الرومانية: سلطة الـpaterfamilias (ربّ الأسرة: الزوج/الأب) على النساء والأولاد والعبيد. والنص في كولوسي 3 يُظهر ذلك جيدًا: «أَيُّهَا النِّسَاءُ، اخْضَعْنَ لِرِجَالِكُنَّ كَمَا يَلِيقُ فِي الرَّبِّ. أَيُّهَا الرِّجَالُ، أَحِبُّوا نِسَاءَكُمْ، وَلاَ تَكُونُوا قُسَاةً عَلَيْهِنَّ. أَيُّهَا الأَوْلاَدُ، أَطِيعُوا وَالِدِيكُمْ فِي كُلِّ شَيْءٍ لأَنَّ هذَا مَرْضِيٌّ فِي الرَّبِّ. أَيُّهَا الآبَاءُ، لاَ تُغِيظُوا أَوْلاَدَكُمْ لِئَلاَّ يَفْشَلُوا.

أَيُّهَا الْعَبِيدُ، أَطِيعُوا فِي كُلِّ شَيْءٍ سَادَتَكُمْ حَسَبَ الْجَسَدِ، لاَ بِخِدْمَةِ الْعَيْنِ كَمَنْ يُرْضِي النَّاسَ، بَلْ بِبَسَاطَةِ الْقَلْبِ، خَائِفِينَ الرَّبَّ» (كولوسي 3: 18-22).

وإن كنتم لا تعرفون الكثير عن النظام الأبوي الروماني: فقد كانت الوصاية الذكورية قانونًا رومانيًا. كان على الزوجات قانونيًا أن يخضعن لسلطة أزواجهن؛ وكان على النساء غير المتزوّجات أن يخضعن لسلطة آبائهن أو أقرب أقاربهن الذكور؛ ولم يكن بوسع النساء أن يمتلكن عقارًا أو يدرن أعمالًا بأنفسهن؛ ولم يكن بوسع النساء إجراء معاملات قانونية أو مالية دون أن يتصرّف رجل باسمهن. ومن هذا المنظور التاريخي، ليس من المستغرب أن نجد في نصوص رومانية من القرن الأول (العهد الجديد) نقاشات عن الزوجات تعكس واقع حياة الزوجات في العالم الروماني في القرن الأول. فالتوجيه الذي أدرجه بولس، بأن تخضع النساء لأزواجهن، هو بالضبط ما كان العالم الروماني سيتوقّعه.

نحن بوصفنا إنجيليين معاصرين لا نفهم هذا ببساطة.

لم يقل بولس للمسيحيين الأوائل إن عليهم أن يكونوا مثل جميع الآخرين؛ بل قال لهم إن عليهم بوصفهم مسيحيين أن يكونوا مختلفين. وتصف راشيل هيلد إيفانز (Rachel Held Evans) لوائح الواجبات المنزلية المسيحية بأنها «ريمكس يسوعي» (إعادة مزج على طريقة يسوع) للنظام الأبوي الروماني. ويوحي البحث العلمي بأن مصطلح «ريمكس» يقدّم وصفًا جيدًا. فعالمتا العهد الجديد كارولين أوسيك (Carolyn Osiek) ومارغريت ماكدونالد (Margaret MacDonald) تحاجّان مثلًا بأن التعاليم الأخلاقية المضمّنة في لائحة الواجبات المنزلية في رسالة أفسس «مناقضة» للعالم اليوناني الروماني إلى حدّ أنها، بدلًا من أن تكون علامة تكيّف، «تُقدَّم لائحة الواجبات المنزلية على أنها ما يميّز المؤمنين في النهاية». وإذا قُرئت لوائح الواجبات المنزلية قراءة صحيحة، فإنها لا تحرّر النساء فحسب، كما يكتب شي-مين لو (Shi-Min Lu)، بل تحرّر جميع أفراد البيت من «العناصر القمعية» في العالم الروماني. فبولس لم يفرض النظام الأبوي الروماني على المسيحيين؛ بل استعمل «ريمكسًا يسوعيًا» ليقول للمسيحيين كيف يحرّرهم الإنجيل.

فلننظر إذًا إلى «الريمكس اليسوعي» في مقطعين متشابهين من لوائح الواجبات المنزلية عند بولس:

[كولوسي 3: 18-19] **أَيُّهَا النِّسَاءُ، اخْضَعْنَ لِرِجَالِكُنَّ كَمَا يَلِيقُ فِي الرَّبِّ. أَيُّهَا الرِّجَالُ، أَحِبُّوا نِسَاءَكُمْ، وَلاَ تَكُونُوا قُسَاةً عَلَيْهِنَّ.**

[أفسس 5: 21-22، 25، 28، 33] **خَاضِعِينَ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ فِي خَوْفِ الْمَسِيحِ. أَيُّهَا النِّسَاءُ اخْضَعْنَ لِرِجَالِكُنَّ كَمَا لِلرَّبِّ. ... أَيُّهَا الرِّجَالُ، أَحِبُّوا نِسَاءَكُمْ كَمَا أَحَبَّ الْمَسِيحُ أَيْضًا الْكَنِيسَةَ وَأَسْلَمَ نَفْسَهُ لأَجْلِهَا، ... كَذلِكَ يَجِبُ عَلَى الرِّجَالِ أَنْ يُحِبُّوا نِسَاءَهُمْ كَأَجْسَادِهِمْ. ... وَأَمَّا أَنْتُمْ الأَفْرَادُ، فَلْيُحِبَّ كُلُّ وَاحِدٍ امْرَأَتَهُ هكَذَا كَنَفْسِهِ، وَأَمَّا الْمَرْأَةُ فَلْتَهَبْ رَجُلَهَا.**

بوصفنا مسيحيين معاصرين نسمع فورًا سلطة الرجل. أيتها النساء، اخضعن لرجالكن. لكن سامعي بولس الأوائل، مسيحيّي القرن الأول، كانوا سيسمعون فورًا العكس. أيها الرجال، أحبّوا نساءكم ولا تعاملوهن بقسوة أبدًا. أيها الرجال، أحبّوا نساءكم كما أحبّ المسيح الكنيسة وأسلم نفسه لأجلها. فمحور التركيز في لوائح الواجبات المنزلية المسيحية اليوم لم يعد هو نفسه كما في العالم الروماني.

خذوا مثلًا الفيلسوف أرسطو (Aristoteles) من القرن الرابع قبل الميلاد. ففي كتابه «السياسة» كتب أرسطو ما صار واحدًا من أكثر نصوص لوائح البيت تأثيرًا في الثقافة الغربية. اسمعوا ما قاله:

أما تدبير البيت فقد رأينا أن له ثلاثة أجزاء – أحدها حكم السيّد على العبيد ...، والآخر حكم الأب، والثالث حكم الزوج. والزوج والأب، كما رأينا، يحكم الزوجة والأولاد، وكلاهما حرّ، لكن الحكم يختلف، فالحكم على أولاده حكم ملكي، وعلى زوجته حكم دستوري. لأنه وإن وُجدت استثناءات من نظام الطبيعة، فإن الذكر بطبيعته أصلح للحكم من الأنثى. ... وعدم المساواة [بين الرجل والمرأة] دائم. ... وشجاعة الرجل تظهر في الأمر، وشجاعة المرأة في الطاعة. ... ويجب أن يُنظر إلى جميع الطبقات على أنها مزوّدة بصفاتها الخاصة؛ كما يقول الشاعر عن النساء: «الصمت مجد المرأة، لكنه ليس كذلك مجد الرجل».

هل تسمعون الفروق؟ يكتب أرسطو خصّيصًا إلى الرجال عن الطريقة التي ينبغي أن يحكموا بها ولماذا لهم الحقّ في الحكم. وهو لا يُشرك المرؤوسين في الحديث. فتدبير البيت هو مجال الرجل الروماني – بوصفه سيّدًا وأبًا وزوجًا. والكلام موجّه إلى الرجال وحدهم.

وفي المقابل، تخاطب لوائح الواجبات المنزلية المسيحية جميع الناس في الكنيسة البيتية – الرجال والنساء والأولاد والعبيد. فكلّ واحد مُشرَك في الحديث. وتكتب اللاهوتية لوسي بيبيات (Lucy Peppiatt) أن هذا هو «المفتاح» إلى التقويض المسيحي للنظام الأبوي الروماني. فلأن لوائح الواجبات المنزلية المسيحية موجّهة إلى جميع أفراد البيت الروماني، بدلًا من أن تفترض وصاية ربّ البيت الذكر، «فإنها تحمل في ذاتها قلبًا للمواقع المعتادة الممنوحة للرجال والنساء والعبيد والأولاد، وللتوقّعات المطلوبة منهم». فبدلًا من منح السلطة لرجل يتكلّم ويتصرّف باسم أهل بيته، تمنح لوائح الواجبات المنزلية المسيحية كلّ فرد من أفراد الجماعة البيتية – المرتبطين بعضهم ببعض بإيمانهم بالمسيح – الحقّ في أن يسمع ويتصرّف بنفسه. وهذا فرق جذري عن البنية الأبوية الرومانية. فالبنية المسيحية للكنيسة البيتية تقاوم العالم الأبوي للإمبراطورية الرومانية.

لأن بولس لم يكن يقصد إبراز سلطة الرجل

ويمكن أيضًا أن تُقرأ الطريقة التي تصوغ بها لوائح الواجبات المنزلية المسيحية سلطة الرجل على أنها اعتراض على النظام الأبوي الروماني. فقد كتب أرسطو (Aristoteles) ليبرّر سلطة الرجل. وشدّد على عدم

المساواة الدائم بين الرجال والنساء: فمن طبيعة الرجل أن يأمر، ومن طبيعة المرأة أن تطيع. أما لوائح الواجبات المنزلية المسيحية فتفعل شيئًا آخر. ففي كولوسي 3 يفتتح بولس توجيهاته عن البيت بنداء موجّه أولًا إلى الزوجات – لا إلى الرجل الذي يُفترض أن تكون الكلمة له (كما يفعل أرسطو). ويشدّد كلّ من بيبيات (Peppiatt) وسكوت ماكنايت (Scot McKnight) على أن بولس لا يُبرز قوة الرجل وسلطته. بل يشدّد بولس على أن الزوجات ينبغي أن يخضعن كما يليق في الرب (لا لأنهن أدنى قيمة)، وعلى أن الأزواج ينبغي أن يحبّوا زوجاتهم ولا يعاملوهن بقسوة. ويكتب ماكنايت: «بدلًا من تعليل التوجيه الموجّه إلى المرأة بسلطة زوجها أو قوته أو قيادته أو مكانته في تراتبية ما، فإن التعليل مختلف جذريًا: إنه قائم على طريقة حياة الرب». فيسوع، لا الـ**paterfamilias** (ربّ الأسرة) الروماني، هو الذي يقود البيت المسيحي.

وكذلك يمكن أن يُقرأ أفسس 5 على أنه مقاومة للنظام الأبوي الروماني. فكثير من العلماء يحاجّون بأن بولس يُخضع مناقشته كلّها للوائح الواجبات المنزلية للآية 21: «خَاضِعِينَ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ فِي خَوْفِ الْمَسِيحِ». فإذا قُرئت هذه الآية في بداية لائحة الواجبات المنزلية في رسالة أفسس، فإنها تغيّر كلّ شيء. نعم، ينبغي أن تخضع الزوجات، لكن الأزواج أيضًا. وبدلًا من التشديد على دونيّة النساء، يؤكّد أفسس 5 مساواة النساء – فهن مدعوّات في الآية 22 إلى الخضوع، تمامًا كما أن أزواجهن مدعوّون في الآية 21 إلى الخضوع. وبدلًا من أن يجعل المسيحيين مجرّد جزء آخر من الجمهور الروماني (حيث يُشدَّد على خضوع المرأة)، فإن الخضوع المتبادل في الآية 21 «سمة مميّزة لطريقة حياة تميّز المؤمنين عن العالم غير المؤمن».

وبسبب ما تنطوي عليه الآية 21 من نتائج جذرية، يجب في ترجمات الكتاب المقدّس التي تريد الحفاظ على الرأي التكاملي (التراتبي) أن تُفصل عن الآية 22.[3] فالنسخة الإنجليزية English Standard Version (ESV) تضع الآية 21 في نهاية المقطع الذي عنونه المترجمون «Walk in Love» (اسلكوا في المحبة). وهذا يفصل الآية 21 عن بداية المقطع التالي المعنون «الزوجات والأزواج»، الذي يبدأ حينئذ بالآية 22: «أَيُّهَا النِّسَاءُ اخْضَعْنَ لِرِجَالِكُنَّ كَمَا لِلرَّبِّ». وبهذه الطريقة تختار الـESV أن تُبرز خضوع المرأة في الآية 22، وتفصله حرفيًا عن تقويض بولس للنظام الأبوي الروماني في الآية 21.

إن ما فعله مترجمو الـESV في أفسس 5 يذكّرني بنقد وجّهه عالم الآثار إيان موريس (Ian Morris) إلى رجال أثينا في اليونان الكلاسيكية. يكتب موريس أنه ليس من قبيل المصادفة أن علماء الآثار لا يجدون إلا القليل من الأدلّة المادية على النساء في أثينا القديمة. «فالنساء والعبيد يبقون غير مرئيين»، لكن ذلك ليس بسبب «مشكلات منهجية» أو بسبب خطأ العلماء في نسبة الأدلّة. فـ«ثقافة المواطنين الذكور المتغلغلة على نحو غير عادي» في دولة المدينة اليونانية لم تُخضع النساء فحسب، بل ضبطت الأماكن التي عاشت فيها النساء ضبطًا محكمًا إلى حدّ أنه لم يبقَ منهن إلا القليل من الآثار. فالنساء يبقين غير مرئيات لأن «المواطنين الذكور في أثينا أرادوا ذلك». وفي ترجمة الـESV لأفسس 5 يُبرَز إخضاع النساء، ويُقلَّل من شأن دعوة الأزواج إلى الخضوع – لا لأن بولس قصد ذلك، بل لأن المترجمين التكامليين للـESV أرادوا ذلك.

وليس أفسس 5: 21 القلب الجذري الوحيد للنظام الأبوي الروماني في هذا الأصحاح. فبولس يطالب أيضًا بأن يحبّ الرجال نساءهم كما يحبّون أجسادهم. هل كنتم تعلمون أن جسد المرأة كان يُعدّ في العالم اليوناني الروماني جسد رجل ناقصًا ومشوّهًا؟ ففي كتابه «في تكوّن الحيوان» يكتب أرسطو أن «الأنثى كأنها ذكر مشوَّه»، وأنه «لأن طبيعة الأنثى أضعف وأبرد ... ينبغي أن ننظر إلى حالة الأنثى كأنها تشوّه». فقد كانت النساء حرفيًا مسوخًا. وبالطبع اعترف أرسطو بأن تشوّه الأنثى ظاهرة «منتظمة» ومفيدة. وفي

القرن الثاني الميلادي أعلن جالينوس (Galen) أيضًا أن النساء رجال ناقصون، تنقصهم الحرارة لدفع أعضائهم التناسلية إلى الخارج. لكنه، مثل أرسطو، أقرّ بأن من الخير وجود رجال مشوّهين، لأنه لولا ذلك لكان التناسل مستحيلًا.

وفي المقابل لا يُظهر بولس شيئًا من هذا الاحتقار لجسد المرأة. فهو يعلن أن أجساد الذكور ليست أثمن ولا أكرم من أجساد الإناث. فالنساء يستطعن مثل الرجال أن يكنّ «مقدّسات وبلا عيب»، وعلى الرجال أن يحبّوا جسد المرأة تمامًا كما يحبّون أجسادهم الذكورية (أفسس 5: 27-29). وأحكي لطلابي كم هي سهلة دراسة بولس في دحض ادّعاء جون بايبر (John Piper) بأن للمسيحية «طابعًا ذكوريًا». قد يظنّ المرء أن بولس سيفتخر بسلطته الذكورية، لكنه لا يفعل. وكما اكتشفت بيفرلي روبرتس غافنتا (Beverly Roberts Gaventa)، يستعمل بولس في رسائله صورًا أمومية سبع مرات ليصف علاقته بالكنائس التي شارك في تأسيسها. «ومن الناحية الإحصائية يعني هذا أن بولس يستعمل الصور الأمومية أكثر من الصور الأبوية، وهذا أمر لافت، ولا سيّما إذا أخذنا في الاعتبار أنها تكاد تكون غائبة عمليًا عن معظم النقاشات حول الرسائل البولسية». فبولس يصف نفسه – وهو رسول ذكر – بأنه أمّ حامل، وأمّ تلد، بل أمّ مرضعة.

ولا يقتصر الأمر على أن بولس يعدّ جسد المرأة ثمينًا، بل هو مستعدّ أيضًا «أن يتخلّى عن سلطة البطريرك (ربّ العشيرة) لصالح دور سيجلب له العار، عار الرجل الذي يتماهى مع الأنثى». ما أجمل رسالة بولس وما أشدّ جذريّتها! لا أستطيع حتى أن أتخيّل كم كانت كلماته مرحَّبًا بها لدى النساء في كنائس القرن الأول. فما جعل جسد المرأة ضعيفًا في العالم الروماني، جعله قويًا في كتابات بولس. فباتّخاذه الصورة الأدبية لامرأة، جسّد بولس الادّعاء الجذري لكلماته في غلاطية 3: 28، بأنه في المسيح «لَيْسَ ذَكَرٌ وَأُنْثَى».

وقد تبنّى مسيحيّو العصور الوسطى لغة بولس التصويرية الأمومية بطريقة لا يفعلها المسيحيون المعاصرون. وتلاحظ غافنتا أن قلّة من العلماء المعاصرين التفتوا إلى لغة بولس الأمومية المدهشة. وفي المقابل، تأثّرت المؤرّخة كارولين ووكر باينم (Caroline Walker Bynum) بكثرة اللغة التصويرية الأمومية التي استعملها رجال الدين الذكور في القرن الثاني عشر، إلى حدّ أنها كتبت الدراسة الرائدة Jesus as Mother: Studies in the Spirituality of the High Middle Ages. وتكتب: «السؤال الذي أريد أن أطرحه هو: لماذا كان استعمال صور أمومية صريحة ومفصّلة لوصف الله والمسيح، اللذين يوصفان عادةً بصيغة المذكّر، شائعًا إلى هذا الحدّ لدى الرهبان السيسترسيين في القرن الثاني عشر؟» وهي تحدّد أنسلم الكانتربري (Anselm von Canterbury)، وهو راهب بندكتيّ كان موقفه من النساء أقرب إلى الأبوية، بوصفه واحدًا من أوائل رجال الدين في العصور الوسطى الذين تبنّوا لغة بولس التصويرية الأمومية. ففي استناد واضح إلى كتابات بولس في 1 تسالونيكي 2: 7 وغلاطية 4: 19 يكتب أنسلم: «أنت [يا بولس] بين المسيحيين كمرضعة لا تعتني بأولادها فحسب، بل تلدهم أيضًا مرة ثانية بعناية محبّتها العجيبة». وكون الإنجيليين المعاصرين يغفلون عن استعمال بولس الجذري للصور الأمومية لا يعني أنها غير موجودة. بل يعني فقط أننا أسأنا فهم بولس مرة أخرى.

لأن اهتمام بولس لم يكن التراتبية الرومانية بين الجنسين

ومن الأدلّة الأخرى التي تقنعني بأن لوائح الواجبات المنزلية ينبغي أن تُقرأ كنوع من المقاومة للنظام الأبوي الروماني، الطريقة التي كان العالم الروماني ينظر بها إلى المسيحيين الأوائل: بوصفهم «منحرفين في شأن الجنسين». فتذكّرنا أوسيك (Osiek) وماكدونالد (MacDonald) بأن بلينيوس الأصغر (Plinius der Jüngere)،

بعد أن تناول تعذيب امرأتين مسيحيتين وصفهما بأنهما شمّاستان، وصف المسيحية بأنها «خرافة فاسدة ومُفرطة». وتكتبان: «بلفت الانتباه إلى نوع من القيادة النسائية في الجماعة – مع استبعاد أيّ إشارة إلى قادة ذكور – ألمح بلينيوس إلى أن مُثُل الرجولة كانت في خطر. فقد كانت السيطرة للنساء». وكان ذلك من وجهة النظر الرومانية مخزيًا. فالمسيحيون الأوائل لم يكتفوا بإقامة نساء في أدوار قيادية؛ بل كانوا يجتمعون أيضًا على قدم المساواة – رجالًا ونساءً وأولادًا وعبيدًا – في خصوصية البيت، وهو مجال نسائي تقليديًا. فكانت المسيحية خارجة عن المألوف وغير أخلاقية، لأنها كانت تُعدّ تقويضًا لمُثُل الرجولة الرومانية. وكانت المسيحية بغيضة إلى بلينيوس لأنها لم تلتزم بلوائح الواجبات المنزلية الرومانية – لا لأنها اتّبعتها.

بالنسبة إلى كثير من المسيحيين المعاصرين، لوائح الواجبات المنزلية هي ما يميّزنا عن العالم. فبينما تعصف النسويّة من حولنا بفوضى، كما يعتقد كثيرون، تقف الكنيسة الإنجيلية كشجرة معتنى بها مغروسة عند مجاري المياه – ثابتة وهادئة بتراتبية من الأغصان. وهذا بالفعل ما يصوغه جون بايبر وواين غرودم (Wayne Grudem) في Recovering Biblical Manhood and Womanhood. ففي المقدّمة يكتبان: «نريد أن نساعد المسيحيين على استعادة رؤية سامية للرجولة والأنوثة كما خلقهما الله. ... ونأمل أن هذه الرؤية الجديدة – رؤية ‹التكاملية› الكتابية – ستصحّح الأخطاء السابقة، وستتجنّب أيضًا الأخطاء المعاكسة الناتجة عن الطمس النسوي للفروق بين الجنسين التي أعطاها الله». غير أن عالم بولس في القرن الأول ما كان ليرى التراتبية الرومانية بين الجنسين «رؤيةً جديدة». فالبنية الأبوية الرومانية التي تنعكس في لوائح الواجبات المنزلية عند بولس لم تكن هي «الرؤية الجديدة». **فالاعتراف بسلطة الـpaterfamilias كان ما يفعله العالم الروماني أصلًا. والنظام الأبوي لم يكن شيئًا يجعل المسيحيين مختلفين؛ بل كان شيئًا يجعلهم مثل جميع الآخرين.**

إن لوائح الواجبات المنزلية في العهد الجديد تروي قصة عن الطريقة التي حاولت بها الكنيسة الأولى أن تعيش في عالم غير مسيحي ومتزايد العداء. فكان عليهم أن يندمجوا فيه، لكن كان عليهم أيضًا أن يتمسّكوا بإنجيل المسيح. وكان عليهم أن يحافظوا على إطار النظام الأبوي الروماني قدر الإمكان، لكن كان عليهم أيضًا أن يتمسّكوا بقيمة كلّ إنسان مخلوق على صورة الله وبكرامته. فأعطاهم بولس مخطّطات البناء لـ«ريمكس» (إعادة مزج) للنظام الأبوي الروماني. فبدلًا من مخاطبة الرجال بوصفهم السلطة الأولى، تُشرك لوائح الواجبات المنزلية المسيحية الجميع في الحديث. وبدلًا من تبرير سلطة الرجل بدونيّة المرأة، تؤكّد لوائح الواجبات المنزلية المسيحية أن النساء مساويات للرجال في القيمة. وبدلًا من التركيز على خضوع الزوجة (فهذا ما كان يفعله الجميع)، تطالب لوائح الواجبات المنزلية المسيحية الزوجَ بأن يفعل عكس ما كان القانون الروماني يسمح به تمامًا: أن يضحّي بحياته من أجل زوجته، بدلًا من أن يمارس سلطة على حياتها. وهذه، كما تكتب بيبيات، هي «الثورة المسيحية». وهذا ما يميّز المسيحيين عن العالم المحيط بنا.

أيمكن أن نكون قد فهمنا بولس معكوسًا تمامًا؟ **ماذا لو لم يكن تركيزه قطّ على الرجل بوصفه رأسًا وعلى خضوع المرأة؟ ماذا لو كانت رؤيته أكبر مما تصوّرنا؟ ماذا لو أراد بولس، بدلًا من نسخ تراتبية قديمة بين الجنسين، أن يُرينا كيف يحرّر الإنجيلُ المسيحي حتى البيتَ الروماني؟**

قبل بضع سنوات كان زوجي في مخيّم خارج المدينة مع كثيرين من شبابنا في المرحلة الثانوية. والرجل الذي كان يعلّم عادةً مدرسة الأحد للشباب، التي كان ينتمي إليها كلّ الأولاد الذين لم يذهبوا إلى المخيّم في تلك العطلة، أبلغ أنه مريض. وكنت الخيار الوحيد المتاح. ولم يكن ذلك مشكلة بالنسبة إليّ. فأنا أحبّ التعليم، وكنت في ذلك الوقت في ذروة مهارتي. فكلّ أسبوع لم أكن أدرّس ستّ مجموعات من طلاب المرحلة الجامعية الأولى في جامعة بايلور فحسب، بل كنت أعلّم أيضًا فتيات المرحلة الثانوية مساء

الأربعاء، وكذلك طلاب الدراسات العليا وطلاب المرحلة الجامعية الأولى والشباب الذين كنت ألتقيهم بوصفي مرشدة. فقد صار التعليم، حتى الارتجالي منه، طبيعة ثانية لي.

لكن القادة في كنيستنا كانوا قد أوضحوا أن النساء لا يجوز لهن أن يعلّمن الرجال، نقطة. والرجولة عندهم تبدأ في سنّ الثالثة عشرة. فكان عليّ أن أتّصل بالقسّ. وكان عليّ أن أشرح الموقف وأطلب إذنًا خاصًا لكي أحلّ محلّ معلّم ذكر في صفّ مليء بالفتيان والفتيات المراهقين. وبعد صمت طويل قيل لي إن الأمر مقبول، ما دمت سأكتفي بمراجعة أسئلة عظة الأسبوع السابق وأعمل ميسّرةً للحوار – لا معلّمةً. وقد كلّفني الأمر كلّ ما لديّ من ضبط النفس لكي أقول ببساطة شكرًا وأُنهي المكالمة.

أنا متأكّدة من أن جزءًا من ذلك كان كبريائي. فها أنا ذي، أستاذة جامعية حاصلة على الدكتوراه من جامعة بحثية كبيرة (وتخصّصي الثاني هو علوم الأديان)، ويُقال لي إنني لا أستطيع أن أعلّم مدرسة أحد للمرحلة الثانوية. نعم، جرح ذلك كبريائي. لكنه لم يكن السبب الوحيد لغضبي. فقد كان أيضًا لأنني كنت أعتقد أن القسّ مخطئ. **فلم يُسمح لي بالتعليم لأنه كان يعتقد أن بولس قال للنساء أن يصمتن وألّا يمارسن سلطة على الرجال. فماذا لو لم يقل بولس ذلك قطّ؟ وماذا لو كنّا، تمامًا كما في لوائح الواجبات المنزلية، قد أسأنا فهم بولس ببساطة لأننا نسينا سياقه الروماني؟ وماذا لو كنّا قد خلطنا بين ردود بولس على العالم الوثني من حوله وبين كلمات بولس نفسه؟**

لأن بولس لم يقل للنساء أن يصمتن

لأنني مؤرّخة، أعرف أن في رسائل بولس أكثر مما تقوله كلماته. فقد كتب بولس إلى كنائس كان يعرفها جيدًا. كان يعرفها. وتذكّرنا غافنتا في ما يخصّ رسالة كورنثوس الأولى بأن «هذه الأسئلة لا تنشأ من فراغ». فبولس كان يعرف الصراعات، والناس، ومثيري الشغب. ولسنا بحاجة إلى الغوص عميقًا في التاريخ لكي نفهم أسس رسالة بولس. فنستطيع أن نرى أنه نشأ داخل كنيسة كورنثوس تنافس على قيمة المواهب الروحية المختلفة (على سبيل المثال). ربما لا نعرف تفاصيل من مصدر مباشر – من الذي تكبّر، ومن الذي فضّل النبوّة على التكلّم بالألسنة – لكننا نعرف كيف وبّخهم بولس: مواهبهم كلّها تأتي من الروح نفسه، ومواهبهم كلّها تعمل داخل الجسد نفسه، ولا تعمل أيّ موهبة من مواهبهم مستقلّةً. فنحن نسمع رسالة بولس بوضوح: في جسد المسيح نحن جميعًا متساوون في الأهمية. والمسافة التي تزيد على ألفي سنة لا تحجب معناها.

ومع ذلك، إذا تجاهلنا السياق التاريخي لرسائل بولس، فقد نشوّه معناها ونحوّل تلال الخُلد عنده إلى جبال. وأوضح مثال على ذلك 1 كورنثوس 14: 33-36: «كَمَا فِي جَمِيعِ كَنَائِسِ الْقِدِّيسِينَ، لِتَصْمُتْ نِسَاؤُكُمْ فِي الْكَنَائِسِ، لأَنَّهُ لَيْسَ مَأْذُونًا لَهُنَّ أَنْ يَتَكَلَّمْنَ، بَلْ يَخْضَعْنَ كَمَا يَقُولُ النَّامُوسُ أَيْضًا. وَلكِنْ إِنْ كُنَّ يُرِدْنَ أَنْ يَتَعَلَّمْنَ شَيْئًا، فَلْيَسْأَلْنَ رِجَالَهُنَّ فِي الْبَيْتِ، لأَنَّهُ قَبِيحٌ بِالنِّسَاءِ أَنْ تَتَكَلَّمَ فِي كَنِيسَةٍ. أَمْ مِنْكُمْ خَرَجَتْ كَلِمَةُ اللهِ؟ أَمْ إِلَيْكُمْ وَحْدَكُمْ انْتَهَتْ؟»

يعلن بولس أن النساء ينبغي أن يصمتن، ويخضعن، ويعتمدن على السلطة الروحية لأزواجهن. هل هذا صحيح؟ لقد صار هذا المقطع جبلًا عظيمًا لدى الإنجيليين المعاصرين، وصار يُشدَّد عليه أكثر مما قصد بولس، في رأيي، في أيّ وقت. وصار نصًّا أساسيًا للتعاليم التكاملية. فلننظر كيف يمكن لفهم أفضل للتاريخ الروماني أن يغيّر الطريقة التي نفسّر بها هذا المقطع.

في سنة 215 ق.م. أصدرت روما المهزومة والمعسرة قانونًا جديدًا. وكانت الخلفية أكبر هزيمة عسكرية لروما على الإطلاق. فقبل ذلك بسنة، في 2 أغسطس/آب، كان القائد القرطاجي هانيبال (Hannibal) قد سحق الجيش الروماني عند كاناي (Cannae) في الحرب البونيقية الثانية. وتذكر المصادر أن ما بين خمسين ألفًا وسبعين ألف جندي روماني ماتوا في ذلك اليوم. وهذا أكثر مما مات في بعض أكثر معارك الحرب العالمية الثانية دموية. وهتف المؤرّخ الروماني ليفيوس (Livius) من القرن الأول: «لا شكّ أنه لا توجد أمّة أخرى ما كانت لتنهار تحت مثل هذا العبء من المصائب». إلا أن روما لم تكن مثل الأمم الأخرى (وهذا بالضبط ما أراد ليفيوس أن يقوله). فروما لم تنهَر. شدّ الرومان الأحزمة، وجهّزوا جيشًا جديدًا، وواصلوا. كانت روما مثال العزيمة.

يعرف طلابي أنني لا أحبّ التاريخ العسكري البحت. لذلك حين أبدأ برواية قصة كهذه، يعرفون أن النساء سيدخلن المشهد قريبًا. وهذا ما يحدث. فقد أدّت إجراءات التقشّف في روما إلى حملة صارمة على مجموعة متنامية من النساء المستقلّات الثريّات – الزوجات والبنات اللواتي استفدن من النقص المفاجئ في الأوصياء الذكور. وقد فعلت روما ذلك على الأرجح لسببين (ولا يزال المؤرّخون يتجادلون في ذلك). وأحد السببين كان بالتأكيد المجهود الحربي. فروما كانت بحاجة إلى المال من الجميع. فأصدروا القانون الأوبي (Lex Oppia). فلم يعد يُسمح للنساء بأن يلبسن ثيابًا فاخرة، أو أن يركبن العربات (في روما) إلا في مناسبات خاصة، أو أن يمتلكن أكثر من نصف أوقية من الذهب. بل كان على بعضهن أن يتنازلن عن مواريثهن من زمن الحرب للدولة. وحُثّت هؤلاء النساء على إنفاق مال أكثر من أجل روما وأقلّ من أجل أنفسهن.

والسبب الثاني الذي جعل روما على الأرجح تُصدر القانون الأوبي هو الحدّ من استعراض النساء لثرائهن في العلن. فقد كانت روما في حداد بعد معركة كاناي. ولم يكن ذلك وقتًا للحفلات ولبس الثياب الأنيقة. بل كان وقتًا لإحكام الإغلاق والقتال حتى الموت (وهذا ما فعلوه إجمالًا). ولم يكن خصوصًا وقتًا يكون فيه للنساء مال أكثر من الرجال. فقد كانت روما مجتمعًا أبويًا، كما رأينا، وكانت السيّدات الرومانيات – النساء المتزوّجات الخاضعات لوصاية أزواجهن – يرمزن إلى نجاح المجتمع الروماني. أما النساء المستقلّات الثريّات المتحرّرات من قيادة الرجال، فلم يكنّ كذلك.

وقد انتصرت روما، بالمناسبة.

لكن حين انتهت الأزمة، بقي القانون الذي يقيّد ثروة النساء قائمًا، بينما أُلغيت القوانين التي تقيّد ثروة الرجال. ونحو سنة 195 ق.م. ضاقت النساء في روما ذرعًا. فاحتججن، وسددن الشوارع بل حتى الطرق المؤدّية إلى الساحة العامة (الفوروم)، وطالبن بإلغاء القانون.

وعارض أحد القناصل، كاتو الأكبر (Cato der Ältere)، إلغاء القانون. اسمعوا ما قاله، وتذكّروا أن ليفيوس دوّن خطابه على الأرجح في عهد قيصر أغسطس (Caesar Augustus) (27 ق.م. إلى 14 م):

في البيت تغلب الهستيريا النسائية حريتنا، وهنا في الفوروم تُداس بالأقدام، ولأننا لم نكبح كلّ واحدة على حدة، صرنا الآن نخشاهن جميعًا معًا. … والحقّ أنني احمررتُ خجلًا حين مررت قبل قليل وسط حشد من النساء. … كان ينبغي أن أقول: «ما هذا السلوك؟ أن تتجوّلن في العلن، وتسددن الشوارع، وتكلّمن أزواج نساء أخريات! ألم يكن بوسعكن أن تسألن أزواجكن عن الأمر نفسه في البيت؟ أأنتنّ في العلن ألطف مع أزواج غيركن منكن في البيت مع أزواجكن؟ ومع ذلك فليس من اللائق حتى في البيت أن تهتممن بأيّ القوانين تُقَرّ هنا أو تُلغى». لم يُرد أجدادنا أن تتولّى النساء أيّ شأن – ولا حتى شأنًا خاصًا – من دون وصيّ؛ بل أرادوا أن يكنّ تحت سلطة الوالدين أو الإخوة أو الأزواج؛ أما نحن (فلتعنّا الآلهة!) فنتركهن الآن يطمحن

حتى إلى الحكم ويتدخّلن في الفوروم وفي مجالسنا. ماذا يفعلن الآن في الشوارع والتقاطعات، إن لم يكنّ يُقنعن نوّاب العامّة (التريبونات) بالتصويت للإلغاء؟ ... إن انتصرن الآن، فماذا لن يحاولن؟ فما إن يبدأن بأن يكنّ مساويات لكم، حتى يصرن متفوّقات عليكم.

دوّن ليفيوس خطاب كاتو هذا في كتابه في تاريخ روما. ويصوّر بلينيوس الأصغر، الذي كتب قرب نهاية القرن الأول، ليفيوس على أنه شخصية مشهورة. فقد كان ليفيوس كاتبًا شعبيًا، ولا بدّ أن تاريخه كان معروفًا جدًا. ولذلك لا يفاجئني بوصفي مؤرّخة أن تظهر أصداء ليفيوس في العهد الجديد. اسمعوا مرة أخرى 1 كورنثوس 14: 34-35: «لِتَصْمُتْ نِسَاؤُكُمْ فِي الْكَنَائِسِ، لأَنَّهُ لَيْسَ مَأْذُونًا لَهُنَّ أَنْ يَتَكَلَّمْنَ، بَلْ يَخْضَعْنَ كَمَا يَقُولُ النَّامُوسُ أَيْضًا. وَلكِنْ إِنْ كُنَّ يُرِدْنَ أَنْ يَتَعَلَّمْنَ شَيْئًا، فَلْيَسْأَلْنَ رِجَالَهُنَّ فِي الْبَيْتِ، لأَنَّهُ قَبِيحٌ بِالنِّسَاءِ أَنْ تَتَكَلَّمَ فِي كَنِيسَةٍ». لا، ليس هذا مطابقًا حرفيًا تمامًا. لكنه قريب. صدى واضح. وبعبارة أخرى: بولس هنا يستقي من بيئته الرومانية.

وليس خطاب كاتو النص الروماني الوحيد الذي يعبّر عن هذه النظرة إلى النساء. فعالم العهد الجديد تشارلز تالبرت (Charles Talbert) يذكّرنا بأن يوفيناليس (Juvenal) (أوائل القرن الثاني الميلادي) يدين أيضًا في هجائيّته السادسة النساءَ اللواتي يتجوّلن في العلن ويتدخّلن في شؤون حكم الرجال بدلًا من البقاء في البيت. فالعالم الروماني كان يعدّ النساء خاضعات للرجل. والعالم الروماني كان يعلن أن الرجال ينبغي أن ينقلوا المعلومات إلى نسائهم في البيت، بدلًا من أن تتجوّل النساء في العلن. والعالم الروماني كان يأمر النساء بالصمت في المنتديات العامة.

كان بولس مواطنًا رومانيًا متعلّمًا. ولا بدّ أنه كان على دراية بالممارسة البلاغية الشائعة آنذاك، وهي تصحيح فهم خاطئ باقتباسه ثم دحضه. ويفعل بولس ذلك في 1 كورنثوس 6 و7 باقتباساته: «كُلُّ الأَشْيَاءِ تَحِلُّ لِي»، و«الأَطْعِمَةُ لِلْجَوْفِ وَالْجَوْفُ لِلأَطْعِمَةِ»، و«حَسَنٌ لِلرَّجُلِ أَنْ لاَ يَمَسَّ امْرَأَةً». ففي هذه الحالات يقتبس بولس الآراء الخاطئة للعالم الوثني، مثل «كلّ الأشياء تحلّ لي». ثم يعدّلها بولس تعديلًا كبيرًا. ولا بدّ أن بولس كان على دراية بالآراء المعاصرة عن النساء، ومنها رأي ليفيوس (Livius) بأن النساء ينبغي أن يصمتن في العلن وأن يتلقّين المعلومات من أزواجهن في البيت. أليس من الممكن، كما حاجّت بيبيات (Peppiatt)، أن يكون بولس يفعل في 1 كورنثوس 11 و14 ما يفعله في 1 كورنثوس 6 و7؟ أي أن يدحض ممارسات سيّئة باقتباس هذه الممارسات السيّئة ثم تصحيحها؟ تكتب بيبيات: «إن المحظورات المفروضة على النساء في الرسالة إلى أهل كورنثوس أمثلة على الطريقة التي كان الكورنثيون يعاملون بها النساء، وفقًا لتوقّعاتهم وقيمهم الثقافية الخاصة، خلافًا لتعاليم بولس».

ماذا لو كان بولس قلقًا جدًا من أن المسيحيين في كورنثوس يفرضون على النساء قيودهم الثقافية الخاصة، حتى إنه واجههم بذلك؟ فاقتبس الممارسة السيّئة التي أراد الرجال الكورنثيون أن ينقلوها من العالم الروماني إلى عالمهم المسيحي، ثم تصدّى لها. والنسخة الإنجليزية Revised Standard Version (RSV) تدعم الافتراض بأن بولس فعل ذلك بالضبط. فبولس يعرض أولًا القيود الثقافية: «كما في جميع كنائس القدّيسين، كذلك لتصمت النساء في الكنائس. لأنه ليس مأذونًا لهن أن يتكلّمن، بل ليخضعن كما يقول الناموس أيضًا. وإن كنّ يرغبن في معرفة شيء، فليسألن رجالهن في البيت. لأنه قبيح بالمرأة أن تتكلّم في الكنيسة» (1 كورنثوس 14: 33-35). ثم يتدخّل بولس: «ماذا! أمنكم خرجت كلمة الله، أم أنتم الوحيدون الذين وصلت إليهم؟ إن كان أحد يظنّ أنه نبيّ أو ممتلئ من الروح، فليعترف بأن ما أكتبه إليكم هو وصية الرب. ومن لا يعترف بهذا، فلا يُعترف به. إذًا يا إخوتي، جِدّوا للتنبّؤ، ولا تمنعوا التكلّم بألسنة؛ بل ليكن كلّ شيء بلياقة وبحسب ترتيب» (الآيات 36-40).

كثيرًا ما أفعل هذا تمرينًا في الصفّ. أطلب من أحد الطلاب أن يقرأ من ترجمته الخاصة، وهي عادةً الـESV أو الـNIV. ثم أقرأ من الـRSV، مع التشديد المناسب على الكلمات. وحين أهتف بعد ذلك: «ماذا! أمنكم خرجت كلمة الله؟»، أسمع في الغالب الصفّ كلّه يشهق. وذات مرة هتفت طالبة بصوت عالٍ: «دكتورة بار! هذا يغيّر كلّ شيء!» نعم، قلت لها، هكذا هو الأمر.

إذا قُرئ 1 كورنثوس 14: 34-35 على أنه اقتباس يعرض ممارسة كورنثية (وهو ما حاجّ لأجله د. و. أوديل-سكوت (D. W. Odell-Scott) سنة 1983، وتشارلز تالبرت (Charles Talbert) سنة 1987 [ملاحظة المترجم (الألماني): وكذلك توماس شيرماخر (Thomas Schirrmacher) سنة 1991، وكاثرين بوشنل (Katharine Bushnell) قبل 100 سنة]، وبيبيات مؤخّرًا مرة أخرى)، فإن قصد بولس يبدو واضحًا: أن يميّز ما كان الكورنثيون يفعلونه («لتصمت النساء»)، وأن يوضّح أن المسيحيين لا ينبغي أن يتّبعوا الممارسة الكورنثية («ماذا!»). ومع أنني لا أستطيع أن أضمن أن هذا ما فعله بولس، فإنه منطقي جدًا (من الناحية التاريخية). فرسالة كورنثوس الأولى تتضمّن أصلًا عدة اقتباسات غير بولسية، وصياغة الآيتين 34-35 قريبة على نحو لافت من المصادر الرومانية. وتلاحظ مارغ موفتشكو (Marg Mowczko): «إن الرأي القائل بأن 14: 34-35 اقتباس غير بولسي هو واحد من الآراء القليلة التي تقدّم تفسيرًا معقولًا للتغيّر المفاجئ في النبرة الذي تُدخله الآيتان 34-35 في النص، وكذلك للتغيّر المفاجئ اللاحق في الموضوع والنبرة والجنس النحوي في الآية 36». فإذا كان بولس يقتبس فعلًا النظرة الرومانية إلى العالم ليضع في مقابلها النظرة المسيحية إلى العالم، فإن معناه هو العكس تمامًا لما عُلّمته النساء الإنجيليات.

أيمكن أن يكون بولس، بدلًا من أن يقول للنساء أن يصمتن كما كان العالم الروماني يفعل، قد أراد في الحقيقة أن يقول للرجال إن النساء في عالم يسوع مسموح لهن بالكلام؟ أيمكن أن نكون (مرة أخرى) قد أغفلنا ما كان بولس يرمي إليه؟ وأننا بدلًا من أن نأخذ توبيخه على محمل الجدّ ونسمح للنساء بالكلام، نواصل بالضبط الممارسات الأبوية التي أدانها بولس؟

بوصفي مؤرّخة، يصعب عليّ أن أتجاهل مدى تشابه كلمات بولس مع العالم اليوناني الروماني الذي عاش فيه. ولكن حتى لو كنت مخطئة، وكان بولس يستقي من المصادر الرومانية فحسب بدلًا من اقتباسها عمدًا بغرض الدحض، فسأظلّ أحاجّ بأن التوجيهات التي أعطاها بولس للنساء الكورنثيات محصورة في سياقها التاريخي. لماذا؟ لأن الخلوّ من التناقض فضيلة من فضائل التفسير الجيّد (أي اتّفاق أقوال الأصحاح كلّه، والرسالة كلّها، والعهد الجديد كلّه). فبولس لا يُصدر مرسومًا شاملًا بأن على النساء أن يصمتن؛ بل يسمح للنساء بالكلام في جميع رسائله (و1 كورنثوس 11: 1-6 مثال جيّد على ذلك). وبولس لا يقيّد قيادة النساء؛ بل يخبرنا هو نفسه بأن نساء قُدن في الكنيسة الأولى وبأنه يدعم خدماتهن (وسأتناول رومية 16 في القسم التالي). فتثبيت تراتبية جامدة بين الجنسين ببساطة ليس هو اهتمام بولس. وكما تذكّرنا بيفرلي روبرتس غافنتا (Beverly Roberts Gaventa) في ما يخصّ موضعًا سابقًا في رسالة كورنثوس الأولى (12: 1-7)، فإن «الدعوة إلى الخدمة» عند بولس «ليست مقيّدة بحسب الجنس، ولذلك لا تجد الحجج المتعلّقة بالتكاملية هنا أيّ أساس». **فبإصرارهم على أن بولس أمر النساء بالصمت، استسلم الإنجيليون مرة أخرى للثقافة الأبوية. وبدلًا من أن نُلقي أرسطو (Aristoteles) من السفينة (وهو ما شجّعتنا عليه راشيل هيلد إيفانز (Rachel Held Evans) ذات مرة)، ألقينا من السفينة الحرية في المسيح التي حاول بولس جاهدًا أن يمنحنا إياها.**

لأن النساء الكتابيات عند بولس لا يتّبعن صورتنا الكتابية للمرأة

إن نساء بولس في رومية 16 هن اللواتي غيّرن رأيي في النهاية.

ما زلت أذكر يوم الأحد الذي اتّضح لي فيه الأمر فجأة. كنت مضطربة بعد العظة. مضطربة إلى حدّ أنني غسلت الصحون. فكان الماء الجاري يهدّئ نفسي بينما كنت أفرك أطباق الغداء. وعرف زوجي أن هناك خطبًا ما (فغسل الصحون كان دليلًا قاطعًا). فجاء إلى المطبخ. ولم يقل كلمة. وأخيرًا تكلّمت أنا: «أنا لا أؤمن بأن الرجل هو الرأس». فاستند إلى سطح العمل. ولم أستطع أن أنظر إليه. ومرّ مزيد من الوقت، ثم سأل: «ألا تؤمنين بأن الرجال مدعوّون إلى أن يكونوا القادة الروحيين للبيت؟» فهززت رأسي. «لا». فبقي واقفًا دقيقة أخرى، ثم قال ببساطة «حسنًا» وانصرف. كنت أعلم أنه لا يوافقني في ذلك – فقد نشأ في كنيسة تكاملية ودرس في معهد لاهوتي تكاملي. ومع ذلك كان مستعدًا لأن يصغي وأن ينظر في منظور لاهوتي مختلف. وسأبقى ممتنّة إلى الأبد للثقة التي منحني إياها في ذلك اليوم.

لم تكن العظة في الحقيقة هي القشّة التي قصمت ظهر البعير، مع أنني أذكر أنها كانت عن قيادة الرجل. فالقشّة التي قصمت ظهر البعير كانت محاضرة ألقيتها مؤخّرًا في مقرّري عن تاريخ النساء. كنا نتكلّم عن النساء في الكنيسة الأولى، بينما كنا نتقدّم زمنيًا من العالم القديم إلى العصور الوسطى. وبدافع عفوي طلبت من أحد الطلاب أن يفتح كتابه المقدّس ويقرأ رومية 16 بصوت عالٍ (ففي جامعة مسيحية أستطيع دائمًا أن أعتمد على أن طالبًا واحدًا على الأقل يحمل كتابًا مقدّسًا). وطلبت من الصفّ أن يصغي ويكتب كلّ اسم امرأة يسمعه.

كانت لحظة تعليمية مؤثّرة – للطلاب ولي. كنت أعرف أن النساء يملأن هذه الآيات، لكنني لم أكن قد أصغيت قطّ إلى أسمائهن تُقرأ بصوت عالٍ، واحدًا تلو الآخر.

فيبي، الشمّاسة، التي حملت رسالة بولس وقرأتها بصوت عالٍ في كنيستها البيتية.

بريسكا (بريسكلا)، التي يُذكر اسمها قبل اسم زوجها (وهو أمر لافت جدًا في العالم الروماني)، بوصفها عاملة مع بولس.

مريم، عاملة نشيطة من أجل الإنجيل في آسيا.

يونيا، المشهورة بين الرسل.

تريفينا وتريفوسا، رفيقتا بولس في الجهاد في الرب.

برسيس المحبوبة، التي تعبت كثيرًا هي أيضًا في الرب.

أمّ روفس، وجوليا، وأخت نيريوس.

عشر نساء يكرّمهن بولس.

سبع نساء يتميّزن بخدمتهن: فيبي، وبريسكلا، ومريم، ويونيا، وتريفينا، وتريفوسا، وبرسيس. وامرأة واحدة، فيبي، تُسمّى شمّاسة. ويكتب كيفن ماديغان (Kevin Madigan) وكارولين أوسيك (Carolyn Osiek) أن فيبي «هي الشمّاسة الوحيدة لكنيسة من القرن الأول التي نعرف اسمها». وامرأة أخرى، يونيا، لا تُعرَّف ببساطة على أنها رسول، بل على أنها واحدة مشهورة بين الرسل.

هل كنتم تعلمون، سألتُ طلابي، أن عدد النساء اللواتي يُعرَّفن بخدمتهن في رومية 16 أكبر من عدد الرجال؟ جلسنا ننظر إلى أسماء هؤلاء النساء. «لماذا؟» قاطعت فجأة طالبة كانت مستغرقة في المحاضرة إلى حدّ أنها لم ترفع يدها حتى. «لماذا لم ألاحظ هذا من قبل؟» على الأرجح لأن الترجمة الإنجليزية للكتاب المقدّس التي تستعملينها تطمس عمل النساء، قلت لها، وبدأت بشرح إضافي.

كنت أصغي إلى نفسي وأنا ألقي المحاضرات في ذلك اليوم. أصغيت إلى نفسي وأنا أقدّم الأدلّة على أن الترجمات الإنجليزية للكتاب المقدّس تحجب الدور القيادي للنساء في الكنيسة الأولى. وأصغيت إلى نفسي وأنا أستعرض مع الصفّ ترجمات مختلفة لرومية 16.

خذوا مثلًا Ryrie Study Bible التي أصدرتها دار Moody Press سنة 1986 (وهي متاحة أيضًا بترجمة ألمانية). كان جدّي يملك هذا الكتاب المقدّس، ونسخته موجودة على رفّي. فبدلًا من الاعتراف بفيبي شمّاسةً، تترجم وظيفتها بـ«خادمة». اسمعوا الحاشية الدراسية: «إن الكلمة المترجمة هنا ‹خادمة› كثيرًا ما تُترجم ‹شمّاسة›، مما يقود بعضهم إلى الافتراض بأن فيبي كانت شمّاسة. غير أن الأرجح أن الكلمة مستعملة هنا بمعنى غير رسمي، أي معينة». «هل لاحظتم ذلك؟» سألت طلابي. لا يُقدَّم أيّ دليل على سبب ترجمة دور فيبي بـ«خادمة» لا بـ«شمّاسة». ولا يُقدَّم أيّ دليل على سبب استعمال الكلمة بالأحرى «بمعنى غير رسمي، أي معينة». ونستطيع أن نخمّن سبب اختيار الترجمة: إنه لأن فيبي كانت امرأة، فيُفترض أنها لا يمكن أن تكون شمّاسًا. ولو جاءت عبارة «شمّاس الكنيسة التي في كنخريا» بعد اسم رجل، لشككت جديًا في أن يكون معنى «شمّاس» قد وُضع موضع التساؤل يومًا.

وبينما كنت أدرّس، كنت أفكّر في كنيستي. في أن النساء نادرًا ما يظهرن على المنبر، إلا للترنيم أو العزف على آلة. وفكّرت في أن النساء كنّ يقُدن مدرسة الأحد للأطفال والرجال يقودون العمل مع البالغين. وفكّرت في الوقت الذي طُلب مني فيه أن أعلّم صفًّا لمدرسة الأحد للبالغين، وجاء القسّ ليراجع مادّتي. وبما أنني كنت أعلّم عن تاريخ الكنيسة فقط، سمح لي بذلك. أما لو كنت قد تناولت النص الكتابي، فلكانت القصة مختلفة.

أذكر أنني شعرت بأنني منافقة وأنا واقفة أمام صفّي الجامعي.

فها أنا ذي أقود طلابي عبر أدلّة تاريخية مقنعة على أن المشكلة مع النساء في القيادة لم تكن بولس؛ بل كانت المشكلة في الطريقة التي أسأنا بها فهم بولس وحجبنا بها معناه. ها أنا ذي أُري طلابي كيف أن النساء في الكنيسة الأولى قُدن وعلّمن فعلًا، حتى بوصفهن شمّاسات ورسولات. وأريتهم أن يونيا كانت تُعدّ رسولة حتى بداية العصر الحديث تقريبًا، حين بدأ الناس يترجمون اسمها باسم رجل: يونياس. وقد جمع عالم العهد الجديد إلدون جاي إيب (Eldon Jay Epp) جدولين يرصدان طبعات العهد الجديد اليوناني من إيراسموس (Erasmus) حتى القرن العشرين. ويُظهر الجدولان معًا أن الاسم اليوناني يونيا تُرجم بصيغته المؤنّثة بشكل شبه دائم، حتى القرن العشرين، حين بدأ الاسم فجأة يُترجم بالصيغة المذكّرة يونياس. لماذا؟ تشرح غافنتا: «يوضّح إيب بطريقة مؤلمة ومزعجة أن عاملًا مهمًا في التعامل مع رومية 16: 7 في القرن العشرين كان الافتراض بأن المرأة لا يمكن أن تكون رسولًا». فقد صارت يونيا يونياس لأن المسيحيين المعاصرين افترضوا أن الرجل وحده يمكن أن يكون رسولًا. وبوصفي مؤرّخة، كنت أعرف لماذا لم تكن النساء في رسائل بولس متوافقات مع ما يُسمّى القيود التي يفرضها قادة الكنائس اليوم على النساء. كنت أعرف أن السبب هو أننا أسأنا قراءة بولس. فبولس ليس متناقضًا في تعامله مع النساء؛ نحن الذين جعلناه

متناقضًا بتفسيرنا. وكما يوضّح رومية 16، فإن الواقع هو أن النساء الكتابيات يناقضن التصوّرات الحديثة عن الصورة الكتابية للمرأة.

كنت أعرف هذا كلّه. ومع ذلك لم أعترض على قادة كنيستي حين أكّدوا أن النساء لا يجوز لهن عندنا أن يعلّمن الفتيان فوق الثالثة عشرة. بقيت صامتة.

وواصلت محاضرتي. فالواقع التاريخي هو نفسه في ما يخصّ فيبي، قلت لطلابي. فبولس يسمّيها شمّاسة. ولا أحد ينازع في النص – بل يستطيعون فقط أن ينازعوا في معنى النص. وقد اعترف آباء الكنيسة الأوائل بفيبي امرأةً وشمّاسةً معًا. فأوريجانوس (Origenes) مثلًا كتب في أوائل القرن الثالث أن لقب فيبي يثبت «بسلطان رسولي» «أن النساء أيضًا يُدعَين إلى خدمة الكنيسة، وهي الوظيفة التي أُقيمت فيها فيبي في الكنيسة التي في كنخريا. بل إن بولس يعدّد أعمالها العظيمة بمديح وتقدير كبيرين». ومع أننا نستطيع بالتأكيد أن نتساءل عمّا قصده أوريجانوس بـ«خدمة الكنيسة»، فمن الواضح أن أوريجانوس قبل الدور الموكل إلى فيبي. وبعد قرن من ذلك كتب يوحنا الذهبي الفم (Johannes Chrysostomus)، الواعظ صاحب «اللسان الذهبي»، عن الكرامة العظيمة التي نالتها فيبي بأن تُذكر «قبل جميع الآخرين»، وأن تُسمّى «أختًا»، وأن تُكرَّم بلقب «شمّاسة». ويختم الذهبي الفم بأن «الرجال والنساء على حدّ سواء» ينبغي أن «يقتدوا» بفيبي بوصفها «قدّيسة». وفي عظته على 1 تيموثاوس 3: 11 يوضّح الذهبي الفم أنه يفهم النساء شمامسةً تمامًا كما يفهم الرجال. فيكتب: «كذلك يجب أن تكون النساء محتشمات، غير ثالبات، صاحيات، أمينات في كلّ شيء. يقول بعضهم إن [بولس] يتكلّم عن النساء عمومًا. لكن هذا لا يمكن أن يكون. فلماذا يريد أن يُدرج في وسط ما يقوله شيئًا عن النساء؟ بل هو يتكلّم عن النساء اللواتي يشغلن رتبة الشمّاس. ‹ليكن الشمامسة كلٌّ بعل امرأة واحدة›. وهذا لائق أيضًا بالشمّاسات، لأنه ضروري وحسن وصائب، ولا سيّما في الكنيسة».

إن فاجأكم هذا الفهم المنفتح لقيادة النساء من شيخ/قسّيس (بريسبيتر) وشمّاس من القرن الرابع، فإن مؤرّخَي الكنيسة ماديغان وأوسيك يذكّراننا بأن الأمر لا ينبغي أن يكون كذلك: «ففي كنائس يوحنا في أنطاكية والقسطنطينية»، يكتبان، «كانت الشمّاسات معروفات جيدًا». فلم يكن وصف فيبي بأنها شمّاسة أمرًا مستغربًا لدى الذهبي الفم، لأن بعض أصدقائه المقرّبين في القرن الرابع كنّ شمّاسات. بل إن ماديغان وأوسيك وجدا 107 إشارات (نقشية وأدبية) إلى شمّاسات في الكنيسة الأولى.

وبالطبع، قلت لطلابي، لم يكن كلّ من في الكنيسة الأولى يؤيّد النساء في مواقع القيادة. فوظيفة القسّيس (البريسبيتر) شاهد واضح على الطريقة التي تسلّلت بها التحيّزات الأبوية للعالم القديم إلى المسيحية في وقت مبكر. أتذكرون كيف كان أرسطو ينظر إلى جسد المرأة على أنه مسخ ومشوّه؟ لقد استورد قادة الكنيسة هذه الأفكار إلى قرارات مجامعهم، وأعلنوا منذ القرن الخامس أن أجساد النساء غير صالحة للقيادة. وكما يكتب ماديغان وأوسيك: «تُربط الطهارة الطقسية بالرجال، والنجاسة بالنساء. وكانت هذه أكبر حجّة ضدّ القسّيسات (البريسبيتيرات) من النساء». وبحلول القرن السادس، حين انتشرت الكنيسة في أرجاء أوروبا وحلّت بالوظائف المقدّسة للأسقف والكاهن محلّ المقرّات الدنيوية القديمة للسلطة الرومانية، كانت النساء أيضًا في حركة – ولكن عودةً إلى مكانهن السابق تحت سلطة الرجال.

«دكتورة بار، لماذا لا يعلّموننا هذا في الكنيسة؟»

نظرت إلى الطالبة، وانقبض قلبي. قلت: معظم الناس ببساطة لا يعرفون. فالكتب الدراسية في المعاهد اللاهوتية كثيرًا ما يكتبها قسوس – لا مؤرّخون (ولا سيّما لا مؤرّخات). ومعظم الذين يرتادون كنائس تكاملية

لا يعرفون أن ترجمة الـESV ليونيا بأنها «معروفة جيدًا لدى الرسل» بدلًا من «مشهورة بين الرسل» كانت خطوة متعمَّدة لإبقاء النساء خارج القيادة (رومية 16: 7). فالناس يعتقدون أن النساء في الكنيسة الأولى كنّ مستبعدات من القيادة، تمامًا كما هنّ مستبعدات من القيادة في الكنيسة الحديثة. والكنيسة تعلّم ما تعدّه حقًّا.

هذه هي الأمور التي قلتها بصوت عالٍ.

أما ما لم أقله – وما أطلق الدموع من عينيّ وأنا واقفة عند حوض المطبخ في ذلك اليوم – فهو أنني كنت أعرف الحقيقة. كنت أعرف الحقيقة، ومع ذلك صمتّ في كنيستي. صمتّ لأنني كنت أخاف أن يفقد زوجي وظيفته. كنت أخاف أن نفقد أصدقاءنا. كنت أخاف أن نفقد خدمتنا.

إن التكاملية تكافئ النساء اللواتي يلتزمن بالقواعد. فبصمتي أسهمت في أن يبقى زوجي في موقع قيادي. وبصمتي استطعت أن أمارس قدرًا من التأثير. وبصمتي احتفظت بصداقة النساء من حولي وثقتهن. وبصمتي احتفظت بحياة مريحة.

لكنني كنت أعرف الحقيقة عن نساء بولس. كنت أعرف الواقع: أن النساء اللواتي يمدحهن الكتاب المقدّس - مثل فيبي وبريسكلا ويونيا - يضعن حدود الصورة الكتابية الحديثة للمرأة موضع التساؤل. وبوصفي مؤرّخة، كنت أعرف أن النساء في كنيستي أُبعدن عن أدوار القيادة لأن النظام الأبوي الروماني تسرّب مجدّدًا إلى الكنيسة الأولى. فبدلًا من أن نخلع روما الوثنية ونتمسّك بيسوع، فعلنا العكس – تخلّينا عن حرية المسيح واعتنقنا قمع العالم القديم.

أغلقتُ الماء في الحوض ورتّبت الصحون.

لقد آن الأوان لكي لا أبقى صامتة بعد الآن.

الحواشي

1. تعني التكاملية في العالم الناطق بالإنجليزية تكامل الرجل والمرأة، ولكن داخل نظام تراتبي يقود فيه الرجل وتتبع المرأة، أو تكون فيه المرأة لا مكمِّلة للرجل فحسب، بل خاضعة له، بوصف ذلك نتيجةً لنظام الخليقة أو تعبيرًا عنه. وتتبنّى بيث بار والمترجم (الألماني)، مع كثيرين غيرهما من المسيحيين، التكامل المتبادل بين الرجل والمرأة من دون تراتبية في الخضوع أو الرئاسة.
2. سمّى لوثر (Luther) هذه النصوص، التي تنظّم الحياة في البيت والعلاقات المتبادلة، «لوائح البيت» (Haustafeln).
3. وكذلك في كثير من الترجمات الألمانية للكتاب المقدّس.